التأسيس للوعي باختيارات المغرب في التدين

ذ. البشير ايت سليمان

باحث في قضايا الدين والثقافة والهجرة

مقدمة:

يتسم تدين المغاربة بالوسطية والاعتدال والابتعاد عن مظاهر التشدد والتطرف، حيث قرروا منذ قرون تبني المدرسة المالكية في التمذهب، وحافظوا على مرونة فقهية سمحت لهم بالتكيف مع مختلف الظروف التاريخية، مما مكنهم من تعزيز قيم التسامح والحوار مع مختلف الثقافات والأديان.

وأثبت الخطاب الديني المغربي أنه الأصلح لهذا العصر لأنه يعطي إجابات واقعية ويصحح المفاهيم الخاطئة حول الدين والتدين.

وككل الدول والأمم تسعى المملكة إلى تثبيت الأمن الروحي للمغاربة، لما له من أهمية استراتيجية لا تقل عن أهمية عن باقي أنواع الأمن، فما هي اختيارات المغرب في التدين، ولماذا يُعد التأسيس للوعي بهذه مُهمّا في فهم وإدراك هذه الاختيارات؟

وسنحاول مناقشة هذا الموضوع من خلال المحاور التالية:

اختيارات المملكة المغربية في التدين

أهمية الوعي باختيارات المغرب في التدين

مقاربات لترسيخ الوعي باختيارات المغرب في التدين

المحور الأول: اختيارات المملكة المغربية في التدين

يتميز التدين الجمعي للمغاربة بالتكامل بين وظيفة العلماء، ووظيفة الإمامة العظمى في خدمة الأمة عقيدة وشريعة وأخلاقا، انطلاقا من مرجعية واحدة. وهي مرجعية المدينة في الاجتهاد المطلق بقيادة الإمام مالك رحمه الله لصياغة التدين الجمعي، مرجعية محلية تراعي الواقع المغربي في صياغة التدين عبر الاختيارات الدينية والوطنية[1].

أولا: مذهب الإمام مالك في الفقه.

اختيار المغاربة لمذهب الامام مالك دون غيره من المذاهب هي مسألة ضاربة في التاريخ وليست وليدة اليوم، وحافظوا عليه منذ بداية نشوء الدولة المغربية منذ قرون، وأوردت الباحثة والأستاذة الجامعية جميلة تلوت أن النواة الأولى للمذهب المالكي كانت في العهد الإدريسي، وأن إدريس الثاني عين أحد تلاميذ الإمام مالك في خطة القضاء، لتخلص إلى أن دخول المذهب إلى المغرب الأقصى "بدأ منذ عهد الدولة الإدريسية أواسط أو أواخر القرن الثاني الهجري"[2].

ولهذا المذهب خصائص عدة، جعلته يستمر في المغرب الأقصى، ويقاوم الاندثار، وفي هذا الصدد عدّ العلامة

1- عبد الله الشرقاوي، "التقصيد الأخلاقي والمعرفي للتدين المغربي.. قراءة تحليلية في اختيارات العلماء المغاربة في الاعتقاد والفقه والسلوك"، رؤى برينت، ط 1، 2025م، ص 5-6

2- جميلة تلوت، في التدين المغربي، نظرات في العقيدة والفقه والسلوك، مطبعة أمين كراف، سلا، ط: 1، 2019، ص: 115.

المغربي علال الفاسي انتصار المذهب المالكي في المغرب إلى ثلاثة عشر سببا نورد بعضها[1]:

قرب مذهب مالك للسنة، والمغاربة حديثو عهد بالدخول للإسلام والاتصال بالمعلمين الأولين الذين أرسلهم إليهم عمر بن عبد العزيز.

محبة المغاربة للمدينة المنورة المتأتية لهم من محبة الرسول، ومن كونها إحدى الحرمين الشريفين ومدفن الرسول.

روح النضالية الموجودة في الإمام مالك والمتفقة مع روح الكفاح الذي هو من أعظم أوصاف البربر.

مكانة الإمام مالك في المشرق وكون كبار العلماء والأمراء يأتون إليه للأخذ عنه وحضور حلقته في الموطأ كالمهدي وابنه الرشيد وولديه الأمين والمأمون.

احترام مالك لآل البيت.

امتياز فقهاء المالكية الأولين بروح المثالية والنضال المستمر في مقاومة البدع والحرص على تطبيق أحكام الشريعة وعدم الخوف في الله من لوم لائم أو إذاية حاكم، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لرجال المذاهب الأخرى.

ثانيا: مذهب الإمام الأشعريّ في العقيدة.

شكل الجانب العقدي للأمة المغربية، عبر تاريخها الطويل، ثابتا من ثوابت الدولة المغربية، ومَعلما من معالم هويتها الثقافية. وارتبطت العقيدة الأشعرية بتاريخ المغرب ارتباطا قويا، امتد ما يقارب عشرة قرون.

وظلت عقيدة أهل الغرب الإسلامي عقيدة أشعرية، مما يعني أن دخول هذا المذهب لهذه المنطقة لم يكن حدثا عابرا، وإنما تميز بكونه عرف تأصيلا وترسيما وتطورا امتد من القرن الخامس الهجري إلى يومنا هذا. مما يعني أن لهذا المذهب نقط قوة ضمنت حضوره القوي ضمن التربة المغربية طيلة قرون ومنحته القدرة على التكيف والاستمرارية. ذلن "إن استمرار المغاربة في التشبث بالعقيدة الأشعرية انعكس بشكل واضح وجلي على مختلف المناحي الحياتية سواء الشفوية منها أو السياسية"[2].

ثالثا: طريقة الإمام الجنيد في التصوّف.

يعتبر التصوف كما أرسى قواعده السلوكية شيوخ المغرب من أهم المميزات للخصوصيات المغربية في المجال الديني؛ وذلك لِمَا تراكم أيضا في هذا المجال من رصيد تربوي، أسهم بصورة فعالة جدا في تشكيل الوجدان الديني المغربي، والسلوك الاجتماعي الوطني.

"وقد كان للتصوف كما تمثله شيوخ المغاربة - ولا يزال - الأثرُ البالغ في تمتين الروابط الروحية، بين جميع المكونات الثقافية والاجتماعية والقَبَلِيَّةِ للمجتمع المغربي، تحت لواء واحد، هو: لواء المحبة، إذِ المحبة هي غاية التربية الروحية، والسلوك الصوفي، وذلك بالسير بالمريد عبر "مقامات" التربية، و"أحوال" التزكية؛ حتى يصل إلى تحقيق خُلّةِ "المحبة" في نفسه؛ خُلُقاً تعبديا أصيلا صادقا، يمتد في سلوكه وطبيعته إلى سائر المجالات بعد؛ بما فيها المجال الاجتماعي، والسياسي، والثقافي...إلخ"[3].

1- علال الفاسي، نضالية الامام مالك ومذهبه، منشورات مؤسسة علال الفاسي، ط 2، 2013، ص 43-46

2- يوسف احنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، مطبعة اليديني، الرباط 2003، ص: 281.

3- مقتطف من دليل الامام والخطيب والواعظ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية

إن التصوف السني يعتبر من أهم سمات وخصائص التدين المغربي، "فهو منهج في السلوك، يميل إلى الالتزام بالجوانب العلمية والروحية، والمقاصد الأخلاقية، بعيدا عما كان سائدا في جهات أخرى من اعتداد بالتنظير الفلسفي، وانزياح إلى الفلسفات الصوفية المغالية، إنه تصوف منطبع بالتوجه السني المعتدل، اتسم عبر العصور التي مر بها في بلادنا باستهدافه لإصلاح السلوك اليومي للناس في صورته الأخلاقية والرقائقية"[1].

رابعا : إمارة المؤمنين في الحكم

مؤسسة إمارة المؤمنين إرث ديني حضاري اختص به المسلمون، كما أنها إحدى الدعائم الأساسية التي تقوم عليها الدولة المغربية الأصيلة، وتستمد مشروعيتها من اختيارات الأمة التي ارتضت الإسلام دينا للدولة منذ نشوئها.

"اعتبار المغاربة إمارة المومنين الممثل الأسمى للأمة، مرجعية ولائية تدبيرية وحيدة للأمة المغربية، رافعة للخلاف، صائنة لدينها من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، بحيث لا تسمح بالتَّسَوُّر عليها في الثوابت والمرجعيات والخصوصيات"[2].

وقد انتقل مفهوم لقب "أمير المؤمنين" إلى المملكة المغربية، بعد أن تمكن من تحقيق استقلاله عن الخلافة المشرقية في عهد الدولة الإدريسية، ليصبح مع الدولة العلوية الشريفة، شيئا مؤكدا في الخطابات والوثائق الرسمية، بل تم تقعيد هذه المؤسسة في صلب الوثيقة الدستورية المغربية منذ عام 1962م. وهذا التفرد المغربي "المبني على البيعة المتوارثة القاطعة لمادة الاختلاف المفرق بخصوصيات لا نظير لها في مجموع أنظمة الحكم المدبرة لشؤون الناس في العالم الإسلامي"[3].

المحور الثاني : غاية الوعي باختارات المغرب في التدين

اولا : تعريف الوعي

الوعي: حفظ القلب الشيء، والحديث يعيه وعيا وأوعاه: حفظه وقبله وفهمه، فهو واع. وفلان أوعى من فلان أي أحفظ وأفهم. وفي الحديث. والواعي الحافظ الكيس الفقيه. وفي حديث أمامة: لا يعذب الله قلبا وى القرآن، قال ابن الأثير: أي عقله ايمانا به وعملا، فأما من حفظ ألفاظه وضيع حدودهفإنه غير واع له.[4].

ثانيا: غاية الوعي باختيارات المغرب في التدين.

يشكل الوعي بثوابت المغرب في التدين أمرا بالغ الأهمية لما يلاحظ من سيولة في التدين العام بشكل ملفت للنظر بسبب العولمة الفكرية التي تلبس الحق بالباطل في بعض الأحيان، والخلط بين المرجعيات والمناهج حتى تلاشت الحدود الفاصلة بين أنماط التدين العابرة للحدود، خاصة في شبكات التواصل الاجتماعي.

والغاية من تنمية الوعي الإسلامي، والتوجيه الديني، "إظهار جمال الشريعة الغراء التي تستوعب كل جديد، وتحافظ على كل موروث صالح تليد، وتحقق التوازن بين الدين والدنيا، والعقيدة والسلوك ما يظهر أثره في العالم الخارجي قوة روحية واعية تتصدى لكل تحد متعنت، وتتحطم على صفاتها كل فكرة هدامة، ودعوة ضالة، وسلوك منحرف. إننا نريد لشبابنا المسلم أن يتشبث بالقيم الروحية، ويتمسك بالتربية الإسلامية ويعمل جاهدا على عدم

1- ذ حسن عزوزي، خطة ميثاق العلماء: التصوف السني اختيار ثابت وعلم سلوك أخلاقي، اللقاء الثالث فبراير 2023 ص 1

2- سبيل العلماء، مجموعة من المؤلفين، منشورات المجلس العلمي الأعلى، مطبعة الأمنية الرباط، ط 1، 2016، ص 55

3- المرجع نفسه، ص 54

4- جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 15، ص 397

التفريط في جنب الله حتى لا يصاب بلوثات جامحة تتطاير من حضارة غريبة واغلة".[1]

ومن غايات الوعي بهذه الاختيارات كذلك "تعميم الفهم الصحيح للدين وتعزيزه بصور التنزيل الراشدة، قديما وحديثا، وتحذير المتعاطين للنظر في الدين من التأويل الغالي والجافي لنصوص الشريعة، إسهاما في علاج حالات فساد الدين، المشاهدة في الواقع الإسلامي.

المحور الثالث: مقاربات ترسيخ الوعي باختيارات المغرب في التدين

تجتمع عدة عوامل مع بعضها بعضًا لتشكّل الوعي لدى المواطنين، هذا الوعي قد يكون زائفاً وقد يكون حقيقيًا، فالمؤسّسات الدينيّة والمؤسّسات التعليميّة لديها القدرة على إظهار الحقائق وخلق رأيٍ عام تجاه قضيّة معينة تمامًا كما يفعل الإعلام. وأيضًا دور المؤسّسات العامّة والرسميّة والفنانين والمثقّفين والأدباء والكتّاب والعلماء، فكلّ هؤلاء يُسهمون أيضًا في تشكيل الوعي العام.

وللحد من خطاب التطرف والغلو، ومقاومة الأفكار الدخيلة على المنظومة الدينية، سلكت بلادنا برنامجا متكاملا متعدد المقاربات في سبيل تأسيس الوعي باختياراتها في التدين بهدوء وحكمة وتبصر، ونذكر من هذه المستويات على سبيل المثال لا الحصر.

أولا: المقاربة المؤسساتية

استندت وزارة الأوقاف في مشروع الإصلاح الديني على ثلاثة أركان تتمثل في إعادة هيكلة وزارة الأوقاف بإحداث المندوبيات الجهوية والإقليمية للشؤون الإسلامية، وفي الأوقاف بإحداث مؤسسة حماية مالية الوقف والاستثمار فيه، فيما يهم الركن الثالث المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية.

يضاف إلى ذلك مركز تكوين الأئمة المرشدين والمرشدات، ومؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف التي تعنى بالطبع والإخراج الجديد للمصحف المحمدي والكتب والمتون التي أنتجها كبار علماء المملكة في العقيدة والفقه والتصوف، ومؤسسة محمد السادس للنهوض بالأعمال الاجتماعية للقيمين الدينيين التي تهتم بالأوضاع الاجتماعية لهذه الفئة.

ومن هذه الآليات كذلك الرابطة المحمدية للعلماء التي تضطلع بالبحث في العقيدة الأشعرية والفقه المالكي والتصوف السني، وتعمل على إحياء التراث العلمي والثقافي والصوفي، ودار الحديث الحسنية، التي تم تأهيلها لتصبح معهدا يشمل البرامج الحديثة في المقررات الدراسية كإدراج اللغات الحية والعلوم الاجتماعية ضمن برامجها الدراسية، مما يؤهلها لتخريج علماء قادرين على مسايرة المشروع الحداثي للمملكة.

وقام أمير المؤمنين، في شهر شتنبر 2009 بإحداث المجلس العلمي المغربي لأوربا، الذي أوكل له جلالته على الخصوص مهمة تعميق وعي الجالية المغربية المسلمة المقيمة في أوربا بقيم الإسلام المثلى القائمة على التسامح والاعتدال.

ثانيا: المقاربة التنظيمية

تسهر الوزارة على تنظيم عمل الهيئة العلمية المكلفة بالإفتاء، التابعة للمجلس العلمي الأعلى، والتي لها من الكفاية العلمية والفقهية ما يؤهلها للاهتمام بشؤون وقضايا الأمة المغربية ومراعاة مصالحها وأحوالها في كل الفتاوى التي تصدر عنها.

1- مقتطف من مقال بمجلة دعوة الحق، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عدد 67، 1966

وحقق مخطط التأهيل المحلي للمساجد مبدأ العمل التشاركي القريب من المواطن وعمل القرب بين العالم والمواطن بشكل سلس وسهل ودائم ومتصل، وجعل مسألة ضبط الخطاب الديني داخل المساجد ممكنة وسهلة ومطابقة للثوابت الدينية للمملكة

ويهدف ميثاق العلماء إلى توحيد الخطاب الديني بالمغرب، وتأهيل القيمين الدينيين علميا ومنهجيا، لتكون لهم القدرة على مواجهة أفكار التطرف والتشويش الدخيلة على ثوابت الدين الإسلامي السمح. وميثاق العلماء، هو عقد يربط بين العلماء والإمامة العظمى التي تحفظ لهذه الأمة ووحدتها العقدية والمذهبية.

ثالثا: المقاربة الإعلامية

ومن أهم آليات تأهيل الحق الديني، هناك الفضاء الإعلامي والتواصل الذي عرف حضورا قويا وتواصلا كبيرا، عبر إحداث آليتين إعلاميتين للمساهمة في هذا التأهيل، وهما إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم، وقناة محمد السادس للقرآن الكريم، اللتين حققتا نجاحا كبيرا، وما زالتا تحققانه سنة بعد أخرى، من خلال الإقبال المتزايد عليهما من طرف المواطنات والمواطنين.

رابعا: الخطب المنبرية (خطة تسديد التبليغ)

في 5 يونيو 2024، أطلقت كل من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والمجلس العلمي الأعلى خطة جديدة، تهدف لتحسين الحياة اليومية للناس. وانعكاس إيمانهم وعباداتهم في نفوسهم وتصرفاتهم. وتقليص الهوة الفاصلة بين فضائل الدين، وبين أعمال كثير من الناس البعيدة عن تلك الفضائل، أطلقت عليها "خطة تسديد التبليغ"، وكانت من أبرز الأحداث التي شهدها الشأن الديني في 2024.

سعت مؤسسة العلماء من خلال هذا المشروع إلى النهوض بأمانات العلماء في واجب تبليغ الدين من أجل تحقيق مقومات الحياة الطيبة في المعيش اليومي للناس بحيث يكون إيمانهم وعباداتهم ثمرات تنعكس على نفوسهم بالتزكية وصلاح الباطن، وعلى سلوكهم بالاستقامة وصلاح الظاهر.

وتحاول الخطة ردم الفجوة بين صور التدين التي انحرفت عن مقصود الدين، وبين مطلوب الدين نفسه، وبلورة "تدين يبلغ بالفرد مبلغا من الحياة الطيبة". كما تتكب على إيصال مضمون الخطاب الشرعي من خلال النفاذ إلى المحرك الرئيسي للإنسان الذي هو قلبه، ومن ثمة بلوغ درجة الرشد في التدين عبر "إحياء روح الإيمان"

وتتقاطع خطة تسديد التبليغ في عملها، مع كل الجهود المخلصة الهادفة إلى تحسين أحوال الناس وإصلاحها، ومع كل النظم والقوانين والمبادئ الساعية إلى تحقيق سعادتهم والعدالة فيما بينهم، وحفظ أمنهم وسلمهم، وحفزهم على الإبداع والبذل والعطاء، بما يقوي أواصر التضامن والتكافل فيما بينهم.

خاتمة

شكل مشروع تأهيل الحقل الديني الغاية الكبرى في التأسيس للوعي باختيارات المغرب في التدين، هذا التأسيس أصبح مدرسة فريدة ومتميزة مكنت العديد من البلدان من الاقتداء بها، لمواجهة الأفكار الهدامة والمتطرفة، خاصة تلك التي تجمعها علاقات تاريخية وروحية بالمملكة. ويظل النموذج الديني الذي أصبح مطلوبا من طرف العديد من الدول، والحاجة الماسة اليوم إلى عولمته لما فيه خير للإنسانية.

والمؤسسات الرسمية والشعبية في حاجة اليوم إلى تعاون من أجل مزيد من التعريف بهذه الاختيارات في البلدان التي تجمعنا بها علاقات تاريخية خاصة في دول اوربا ودول الغرب الافريقي، مع اقتحام عوالم جديدة في

أمريكا اللاتينية.

لائحة المراجع

- سبيل العلماء، مجموعة من المؤلفين، منشورات المجلس العلمي الأعلى، مطبعة الأمنية الرباط، ط 1، 2016
- جميلة تلوت، في التدين المغربي، نظرات في العقيدة والفقه والسلوك، مطبعة أمين كراف، سلا، ط: 1، 2019
- علال الفاسي، نضالية الامام مالك ومذهبه، منشورات مؤسسة علال الفاسي، ط 2، 2013
- عبد الله الشرقاوي، "التقصيد الأخلاقي والمعرفي للتدين المغربي.. قراءة تحليلية في اختيارات العلماء المغاربة في الاعتقاد والفقه والسلوك"، رؤى برينت، ط 1، 2025م
- يوسف احنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، مطبعة اليديني، الرباط 2003
- ذ حسن عزوزي، خطة ميثاق العلماء: التصوف السني اختيار ثابت وعلم سلوك أخلاقي، اللقاء الثالث فبراير 2023
- مقتطف من دليل الامام والخطيب والواعظ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية
- جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 15
- مقتطف من مقال بمجلة دعوة الحق، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عدد 67، 1966